معًا إلى الأبد فى نعيم الجحيم

دمعة فى مهب الريح !

قضايا المرأة

التحرير

ليليان

أسير لا نظير له ولا مثيل . . سجنه المال والجاه . . وأغلاله الغر والغنى . . الحرمان أمنية أمانيه ، والفقر أمله الذى لا يموت . . فك أغلاله وحطم قضبانه . . عرى نفسه وتنازل عن ثروته . . قرع باب الفقر وتسلق حيطان البؤس . . فإذا بالنعمة تقف له بالمرصاد . . هرب منها . . تبعته — دق عنقها . . طوقت عنقه بخيراتها ، فنطح برأسه تلال الأموال وعاش فى غنى مدقع ، وهو يتضور شبعا لا جوعا !

استولى بعض الفلاحين على أشجار غابته ، فهاج وماج تولستوى . . وفى لمح البصر تذكر لمبادئه ، وأخرج لسانه لفلسفته فى المحبة والتسامح . . وطلب من سونيا أن تسلم الغصوص إلى أيدى العدالة ليأخذوا جزاءهم ، ناسيا متناسيا أنه دعا إلى إلغاء المحاكم والعدالة البشرية .

وأصدرت المحكمة حكمها : الحبس ستة أسابيع . . وفى لمح البرق لمعت عقارب الندم لتولستوى ، وهطلت دموعه على خدوده ، وعانق مبادئه من جديد . . ثم التذعت فى دماغه نيران ثورة عاتية على سونيا ، وبألسنة من لهب سفعها سفعات . . فتولاها لما علم بمذبحة أشجار غابته . . ولولاها لما بلغ عن الغصوص . . ولولاها ما ارتد عن مبادئه . . فهددته سونيا بالانتحار لارتياح من ظلمه . . فأعلنها عن عزمه بالتنازل عن ثروته للفقراء . فقررت أن تعيش للدفاع عن أموال عيالها . . كما ذكرت فى الأسبوع الماضى

الأنانى وبنت الدواهى

مع شروق الشمس سكبت العاصفة التولستوية . . نضب ينبوع الدمع الهتون ، وسقطت آخر دمعة فوق شفتى تولستوى ، واختفت فى الله دون أن يلاحظها مخلوق . . فحمل همه وغمه ، وغله وغيظه ، واختفى فى محرابه تاركا وراءه دمعة فى مهب الريح . . سونيا .

وفى محرابه ناجى قلمه الورقى وكتب : « ١٦ يولية ١٨٩١ : أعماقى تناقض أعماقى ، وحياتى تتعارض مع مبادئى . . إنى أعيش فى زيف وزيغ ، وأتخبط بين الخير والشر . تارة أحلق فى السماء ، وتارة أزحف على الأرض . . إن نفسى تنفر من نفسى . . إن نفسى تشمئز من نفسى . . ورغم غضبى الشديد على سونيا ، مصدر بلائى وكل بلايا ، فهى المسئولية عن حبس الفلاحين . فإنى أشعر بالأمن ن لها ، لأنها دون أن تدرى تتشلنى من تخبطى ، وتشدنى عومى . وقهرت عجزى عن دفع العار عن نفسى ، وساعدنى على اتخاذ أفضل وأصلح قرار . . وأعتقد أنه يتحتم على الآن أن أبلغ المسئولين فى الدولة أنى قررت التنازل عن جميع أملاكى . وهم مطلق الحرية للتصرف فيها كيفما يشاءون . . وإن كنت أفضل أن يوزعوها على فلاحى أرضى » .

أم داعب النوم جفونه . . ونام .

وتكحل السهد عيني سونيا . . ارتعشت الدمعة الآدمية جزعا وهلعا . . هامت على وجهها فى فلاة العذاب اللانهائية . . رنت إلى السماء تخشع ، وتسمرت نظراتها فى عينيها . . إن السماء مازالت مكشرة . . فتوسلت إليها سونيا أن تمرق تكشيرتها ، عسى أن يؤدى تمرق « اليانسة » إلى سكون روعها وهدوء غضبها . بل زهوق روحها . . كم تود أن ترى نفسها كومة من العظام راقدة فى التراب ، وفوقها لا زوردها الميت . . لكن لم تلب دعاءها . فخرجت من فمها آهة كآهة الموت . . ثم لفحت الفضاء بمصل الكلام المضاد للاختناق . . أحدثت تستعيد كلام زوجها كلمة كلمة ، وأفعاله فعلا فعلا .

إن ليوفوتشكا ألقى على عاتقها عبء إدارة أملاكه وضياعه وأمواله ، ليتفذ روحه ويضل روحها . . لتفتح له أبواب الخلد ، وتفتح لها أبواب جهنم . . ليشرب هو فى كأس من عسجد أنهار العسل المصفى ، ولتتجرع هى اللهب من كأس تضطرم نارا . . دائما لا يفكر إلا فى نفسه ، ولا يهمه إلا نفسه . . أبدا لم يفكر فيها ويهتم بها . . أفكر لحظة طوال أثنتى عشرة ساعة دامت فيها مناقرتها ، أن يضع نفسه مكانها ؟ . . أبذل أدنى مجهود ليذكر ويتذكر أنه هو بعينه الذى طلب منها أن تسلم الفلاحين الغصوص إلى أيدى العدالة ؟ .

أحاول لحظة أن يعميها أذنه ، ويستمع إلى دفاعها عن التهمة التى يصر على إلصاقها بها ؟ . كلا . . وكلا . . أجلسها هى البريئة فى مقعد الاتهام . . وجلس هو المذنب فى مقعد القاضى وفى يده سيف العدالة . . وتكلم بجرأة المنصف ولهجتها جور الظالم . وأدلى بحجة البرىء وهو عين المجرم . . ونسب إليها الجرائم وأنزل على أم رأسها المصائب . . ولطم أمامها العدالة فى جلجلان قلبها . . ثم غسل يديه قدامها مدعيا لها أنه برىء من دمها الذى أراقه . . ثم كالمسيح الكذاب حاول بدموعه أن يثير شفقتها ، ليرق له قلبها ويرثى لحاله ، ناسيا متناسيا أنه هو القاتل وهى المجنى عليها .

يالله من رجل ألأم من اللؤم ، بل لو كان اللؤم ولدا لكان هو أباه . . يالله من رجل أظلم من الظلم ، بل هو الجور بعينه إلا أنه ينطق بلسان وشفتين . . ببراءة الطفل الرضيع يظلمها ظلم الأهبى .

هى سونيا بنت الدواهى وأم عاقبة . . يالله من ترجمى يمشق ذاته ، ولا أحد غير ذاته . . ليل نهار يتأمل صورته المنعكسة على صفحة المياه المتحركة ، وعلى صفحة المرآة الصدئة ، وعلى صفحات يومياته ، وعلى صفحات مؤلفاته . . ويهيم بها حبا وإعجابا .

فصورته تفتنه وتسحره . . تلهب مهجته ، وتخلب لبه ، وتسلب عقله . . لا يمل نظره من التطلع إليها ، ولا يمج سمعه من مناجاتها له . . فلذاته شغله الشاغل . . لا يرى ولا يسمع سواها . . ولا يحس إلا بها ولا أحد غيرها . . يالبيت آفة الروس تغضب عليه وتحوله إلى زهرة « التولستوى » تماما كما فعلت آفة الإغريق مع الفتى اليونانى الجميل « نرسيس » وحولته إلى زهرة النرجس .

قال لها : سأوزع ثروتى على الفقراء . . سأعتق رقبتى من غل الضلال ، وذل المال ، ونير الملكية . . سأطهر روحى من وضر ذنوب البلهنية . . وقراري هذه المرة بلا رجعة . . أتصدقه ؟ . . كثيرة هى أقواله ، وقليلة هى أفعاله . . ولكن إحساسها يقول لها إنه فى هذه المرة ، على خلاف عهدها به ، سيخلص لكلمته ونادرا ما يكذب عليها إحساسها . . يالله من أنانى . . كل همه نفسه . . إذا تكلم يقول لسانه : « أنا ، كيت وكيت ، و « أنا ، كيت وكيت و « وأنا » . . و « أنا » . . و « أنا » . . وإذا كتب يقول قلمه : « أنا ، هذا و « أنا ، ذاك ، وأيضا « أنا ، بين هذا وذاك . . وإذا فعل كذا وكذا ، وعمل كذا وكذا ، فيقول : « أنا ، ومن بعدى الطوفان .

أهو أعمى لا يميز بين الحق والباطل ، والظلمة والنور ، والعدل والجور ؟ . . أهو أب ميت القلب والحس ؟ . . أيهون عليه أن يغرق عياله فى مستنقعات الفقر ، بعد أن كانوا يسبحون فى بحار الغنى ؟ . . أيهون عليه أن يجردهم من أثواب المال والجاه ويجعلهم أعرى من حية بعد أن كانوا أكسى من بصلة ؟ . . أيهون عليه أن يطرد العز من داره ويقيم الذل مكانه ، وينزل الحسرة فى قلوب عياله ؟ . . أيهون عليه أن يقتلهم بسيف الهم والكمد ؟ . . أيهون عليه أن يغلق فى وجه عياله باب العطاء ويشردهم فى الشوارع ، ليقرعوا باب اللاء ويتسلقوا حيطان العناء ؟ . . أيرضى لهم أن يولع البؤس فى دمهم ، ويزرع الشقاء فى لحمهم ؟ . . أيرضى لهم بعد أن كانوا يرتعون فى خيره وفضله ، أن يرضوا من المائدة بالفتات ، ومن الفضل بالبلغة ؟ . .

أحى ؟ ! . . أأصيب عقله بالخبل ؟ ! . . كيف يسع نعمته على الغرباء ويضن بها على أبنائه ؟ . . أركدت سوق الخير وأصيبت تجارة البر بوكسة ؟ . . إن تضييع حقوق النعمة لذاعية من دواعى النقمة . . وكفران النعمة لوأحله الشرع لحرمته الطبع ، ولو أجازته الشريعة التولستوية لحرمته الفروة الأبوية . . ولوكانت الفروة رجلا لكان كريم الوجه ، نقى القلب ، سليم الصدر ، حسن الخلق والخلق . . ولوكانت الفروة امرأة لكانت راقية العقل ، فاتنة الجمال ، سخية اليد ، جزيلة العطاء ، جميلة البشرة ، وفية لأهلها لا تشح عليهم بأموالها ، ولا تبخل عليهم بإحسانها .

ولوكان كفران النعمة طعاما لكان قذرا ووضرا ، ولوكان شرابا لكان عكرا وكدرا . . ولكن كل إناء يرشح بما فيه . . ولو صدق ظنها ، ووزع ثروته على الفلاحين وحرم عياله منها ، لكانت مصيبة ، ولكان المقام فى الفقر أهون عليها وعلى عياله من المقام فى حضرته وحضرة الفقر . . إنها تفضل مليون مليون مليون مرة أن تموت قبل أن ترى هذا اليوم

العبقرى وأم خنشفير

ومن شدة غيظها تلتقطت سونيا كالخية . . واعترتها رغبة قاتلة فى أن تمرق كل شىء . . ورغباتها أوامر . . فرقت لأخطائها ونظراتها . . وأيايها ومخالبها ، وخياطا وطبيبها ، كل ما يخطر ولا يخطر على البال . مرقت برد الندى وضوء الصبح . . مرقت خدود الورد وعيون النرجس . . مرقت الأشجار وهتكت أسرار غصونها وأوراقها . . مرقت السحاب والغيوم والغموم . . مرقت وهلها ، ووجلها ، وزفرات همها . . مرقت عرف ديك الحند وذنب طاووس

السد . . مرقت الضحى والأصيل والنهار الطويل . . مرقت البيض الشمس ، وسربال القمر ، وألوان قوس قزح . . مرقت رجفات البرق وضربات الرعد . . مرقت لجج البحار وفيافي القفار . .

مرقت أجنحة البعوضة التي تخص عيش مقلة الأسد . . مرقت المحلة التي تقلق منام الفيل . . مرقت الأرنب الذي ينام وهو ساهر العين . . مرقت الجاموس الذي تنفرمنه الخواطر والنفوس . . مرقت حديد قضبان السكة الحديدية التي فكرت في أن ترقد عليها . . مرقت عجلات القطار التي كانت ستفرمها . . مرقت نجوم الظهيرة وكابوس منتصف الليل . . مرقت الآبار وعلقت أشلاء على كواكب الثريا . . مرقت عقارب البرد وألسنة النار . . مرقت الصخر الجلمود وقلب زوجها الجحود . . مرقت سبئات زوجها التي فوقه وتحته ، وفيه وحواليه .

ثم . . هدأت ثورتها .

إنها هنا وهو هنا . . والأيام بينهما والزمن طويل .

فإذا كان هو ليون تيكولايفيتش بن تولستوي . . فهي سوفيا أندريفنا بنت بهرز . . وإذا كان هو أبا اليت ، فهي أم اليت . . وإذا كان هو الأسد ، وهو أبو فراس وأبو الأبطال وأبو الحرث وأبو حفص وأبو محراب وأبو محطم ، وأبو الزعفران وأبو الحسن ، وأبو الهيصم وأبو العباس . . فهي الداهية أم الربيق وأم اللهيم ، وأم الرقيب وأم الليل ، وأم حشاف وأم حنتشير ، وأم معبر وأم الرئيس ، وأم عتاب وأم الطريق ، وأم حنور وأم عامر . . وإذا كان هو الذئب ابن الأرض ، فهي الحية بنت ودك . . وإذا كان هو العبقري ابن عبقر فهي المرأة التي تنتهي إلى قبيلة النساء ، بل هي إحدى بنات نقرى اللاتي لا ينجو رجل من نقرهن . .

وإذا كان هو الباطل بن بهلل والضلال ابن الأثال والنكال ، فهي بنت طبق ، هي الحية الصفراء التي تنام سنة أيام ، وتستيقظ في السابع فلا تنفخ في شيء إلا أهلكته قبل أن يتحرك . . وإذا كان هو ابن أقوال يجيد القول كلها ويحسن الكلام والكلام والكلام ، فهي بنت أفعال لا أقوال . . وإذا نجز ونجرش بها فيا ويله منها ، سوف يلقى منها بنات برح وبنى برح . . وإذا لم يكن صاحب ضياع وملايين بل مجرد هلمعة بن قلمعة ليس معه قليل ولا كثير . . لكانت أيضا جردته في لحة عين من كل ما يملكه لتعطيه لعباقا ، ولتركته هلمعة بن قلمعة بلا ملم .

إنها هنا وهو هنا . . والأيام بينهما والزمن طويل .

ستقض له بالمرصاد . . ستحجر عليه . . ستمنعه من أن يموت الغنى والرخاء ، ويدفن عروشها عباقا في التراب . . أبدا لن تتركه يهبط حظهم . . ستكافح وتناضل من أجلهم حتى آخر نفس في حياتها .

وانتحرت شمس السلام

وذاعت سوفيا للقتال . . وأعلنت حالة الطوارىء في « اياسنايا بوليانا » العاصمة التولستوية . . استدعت كل قواتها البرية والبحرية والجوية ، عدا فرقة المدرعات التولستوية . . آسفة . . استدعت كل عباقا عدا ماشا التولستوية الفج . . وأبلغتهم بقرار أبيهم ، وعرضت عليهم تحاوفها . . واستعرضت معهم تطورات الموقف في صومعة العدو ، وخططه للمستقبل ، وما يترتب عليها من نتائج خطيرة ، وما ستجلبه لهم من نوائب ومصائب ، وبؤس وشؤم . .

ثم خرجت من قاعة الاجتماعات وبين ذراعيها آخر العنقود ، طفلها فانيتشكا (٣ سنوات) ومن ورائها عباقا الفراهتون : أندريه (١٤ سنة) وميشل (١٢ سنة) ، والكسندرا (٧ سنوات) . . وضعت فانيتشكا في سريره ، وتركته في رعاية مربيته . . وقادت المراهقين إلى حجرة المذاكرة ، وتركتهم في رعاية مدرسيهم . . ثم عادت إلى قاعة الاجتماعات التي تحولت إلى غرفة عمليات . . وعقدت اجتماعا مع أعضاء القيادة العسكرية بكامل هيئتها : ابنها سيرج (٢٨ سنة) وابنتها تاليا (٢٧ سنة) وابنها إيليا (٢٥ سنة) وابنها ليون (٢٢ سنة) . . وافتوحت عليهم إعلان الحرب على أبيهم للدفاع عن حظهم في كل شبر من أرضه وكل ملم في خزائنه .

وانتحرت شمس السلام . . وأسدل الليل سجفه . . وخيم التوتر على البيت . . ونشبت الحرب بين قوات « حرب القفر » التي يرأسها تولستوي والتي تضم جندية واحدة : ماشا بنت العشرين سنة . . وبين قوات حرب « الغنى » التي ترأسها سوفيا وتضم بالي أولادها وبناتها . . ودارت المعارك الكلامية الضارية بين الجبهتين . . واستمرت الاشتباكات جوا وبرا وبحرا أياما وأياما . . فصفت القوات الجوية « الغنية » زوارق « القفر » الحربية وأغرقتها في بحر الحرمان . . ثم وجهت المدفعية « الغنية » ضربات رادعة وحاسمة إلى كافة الأهداف العسكرية والفلسفية للقفر . . وتمكنت من تدمير جزء كبير من « ميناء البؤس » . . كما أشعلت النيران في معامل تكرير « بترول التقشف » وأحرقت بها أضرارا جسيمة . . كما أسقطت سبع طائرات « فقيرة » طراز « جوع ٢١ » . . فقامت الطائرات القفرية بضد العدوان ، وشن غارات جوية على القطاع الغربي من مدينة « المال » والمناطق القريبة من مدينة « الثراء » وتمكنت من قصف ثلاث قواعد جوية تابعة لقوات « البلهنية » . . ولكن الطائرات الغنية تصدت لها ، وأجبرت الطائرات القفرية الغيرة على الفرار .

ثم حاصرت قوات حرب الغنى صومعة فيلسوف القفر ، وبين شفاه جنودها صواريخ طراز « سوفيا ٣ » . . وقامت الصواريخ بتشريح وتجريح مذهب القفر ، وسبق وشيّ مبادىء فيلسوفه .

مصرع الأمل

فتقلب تولستوي فوق الجمر ، والنار تضطرم في جسده . . في قلبه نار . . وفي صدره نار . . وفي عقله نار . . ما الحق وما الباطل ؟ . . سؤال يلح عليه ليل نهار . . سؤال يحز ضميره ويبغدغه . . أينصر مبادئه ويخذل عياله . . أم ينصر عياله ويخذل مبادئه ؟ . . ولكن بلا حرمان سيعيش في خذلان . . ما أتعسه ! . . الدنيا عنه مائلة والأيام عليه متحاملة . . والدهر بلاه بأسرة لا تحامل إلا على العدل ولا تميل إلا عن الفضل ، ولا تبالي بأن تحرق دنياها إذا رفأت دنياها . . أيقاوم زوجته وعياله ؟ . .

إن الحق عزيز وإن استذل أهله ، وكثير وإن قل حزبه . . أيستسلم لهم ؟ . . إن الباطل ذليل وإن رصع بالمرجان والعقيق ، وقبيح وإن غطى وجهه بكل مليح . . ودارت به الأرض وجلس على رصيف الحرية . . فلحق به إله القفر وإله الغنى وأخذا يطوفان حوله وهما يتصارعان . . فتنفث بطل شعر لحيته . . إن هذا الدوران الذي لا ينتهي من الانبحار والانتصار والانتصار والانبحار ، يشله . . يعجزه . . وعجزه يثبط همته . . يشذب قوته . . ويفت عضده . . ويقض مضجعه .

ياليته كان بدويا تمتد تحت قدميه الصحراء التي لا تنتهي . . يركب جواد القفر وينطلق به ، وتتطاير من حوله رمال اليؤس والشقاء . . أبدا بلا بيت . . أبدا حر كريح الصحراء . . ولكنه أسير . . قيوده الغنى والجاه ، وقضبانه تسعة عيال ، وسجانته سوفيا ، أبدا سيظل موزعا بين حب الله ومبادئه ، وحبه للدنيا وأسرته .

وحررت قواه ، وسقطت مثالياته على أرض الواقع . . ومات أمله في توزيع ثروته على الفقراء . . فحمل جثة أمله بين ذراعيه ، ودفنها في مقبرة اليأس . . وانغرس سهم العذاب في قلبه . . إن نزعه فسيكون الألم شديدا . . وإن أبقاه فسيكون الألم أشد . . فليتركه كما هو . . ليكن رفيق عمره ، والمرآة الصادقة لكل لواقي ودقائق وساعات أيامه . . فهو الجرح الذي لا يبرأ ولا يلتئم ، والنار التي لا تنطفأ ولا تخمد . . إنه الألم الذي لا نهاية له ، والعذاب الذي لا يموت .

وانتهت الحرب الأسرية بانتصار سوفيا و « حرب الغنى » ، وهزيمة تولستوي و « حرب القفر » . . لأن تولستوي ليس سوفيا . . لأنه ينقصه مالسوفيا من الصبر الجميل الذي لا ينفد ، والإرادة الحديدية التي لا تتزعزع ، والعبقرية الأنثوية التي لا تضاهى ، في الاستراتيجية والقيادة ، والتكتيك والهجوم . . والأهم من هذا وذاك فإنه ينقصه مالسوفيا من قوة القلب . . هذه القوة التي تجعلها أبدا تتجشم المصاعب ، وتتحمل المتاعب ، وتحقق آمالها ، وتنال مرادها ، وتحصل على حقوقها وحقوق عباقا .

وتنازل تولستوي عن كل ما يملكه من ضياع وعقارات ، وأرض وأطيان ، إلى زوجته وعياله ، على أن يتقاسموها فيما بينهم . . وبلغت خسائر المهووم المقهور ٥٨٠ ألف روبل ، أي ما يوازي ٥٨٠ ألف جنيه مصري من جنيهات اليوم . . أما النصر الوحيد الذي أحرزه فيلسوف القفر في هذه المعركة ، فكان اليأس . . اليأس المدمر .

وأسدلت ستارة السلام . . ورفعت ستارة الآلام .

انطوى تولستوي على نفسه كالمحارة ، أفر لألّ من أحزان وأشجان ، ولكن هذه حكاية أخرى يطول شرحها □